

الملتقى الدولي:

الموروث الثقافي والسياحي ودوره في خدمة التنمية المستدامة

المحور:

استثمار الموروث الشعبي(الشفهي والمكتوب) في التنمية المستدامة

العنوان:

الحكاية الشعبية بين الإهمال والاستثمار في التنمية المستدامة

الاسم واللقب: رشيدة لهواجي

boualem47@gmail.com

السنة الثالثة دكتوراه -الأدب العربي قديما وحديثا

أستاذة مؤقتة جامعة غارداية

Title:

The folk tale

between neglect and investment in sustainable development

summary:

The theme of the research is the popular story, its characteristics and its role in advancing sustainable development.

1-مقدمة:

تعد الحكاية الشعبية موروثا شفويا، ضاربا بجذوره في القدم، إلى درجة تعذر فيها على الباحثين تحديد

تاريخ نشأتها ومكانه، وإلى حد التسليم بأنها تكون حيث يكون الإنسان، لأنها وعاء مرن يحوي تجاربه

وخبراته وبطولات، حتى أحلامه ومخاوفه، ومرآة عاكسة لعاداته وتقاليده؛ فتنوعت تبعاً لذلك بين ما هو اجتماعي، وخيالي، وديني، وعجائبي.

وظل هذا الإرث مدة من الزمن يُنقل مشافهة، شأنه في شأن نماذج فنون الموروث الثقافي الأخرى، كالشعر الملحون، والألغاز، والسير، والأحاجي، والأمثال الشعبية ...

فأضحت المشافهة سلاحاً ذا حدين، إذ أكسبت الحكاية مرونة تعطيها القدرة على تحمل دلالات جديدة من جيل إلى آخر من جهة، لكنها من جهة ثانية جرّت فقدان كمّ ليس بالقليل منها، ترتب عليه خسران معارف سوسيولوجية، وميثولوجية حول تركيبة المجتمع، وعادات أهله في مناسباتهم الدينية والاجتماعية.

وعليه تحاول هذه المداخلة دراسة الحكاية الشعبية في الجنوب، للإجابة عن أسئلة إجرائية وتأسيسية من مثل: ماهي الحكاية الشعبية؟ ماهي خصائص الحكاية الشعبية في الجنوب وما أهدافها؟ وما أثر العناية بها في إثراء الساحة الثقافية المحلية والوطنية؟ وكيف يمكنها المساهمة في تنشيط السياحة الصحراوية؟ وماذا يترتب على ذلك من عائدات مادية، ودفع لعجلة التنمية المستدامة؟ كمصدر بديل للمصادر التقليدية المستنزفة، الآيلة إلى النفاد.

2- مفهوم الحكاية الشعبية:

يمكن اعتبار الحكاية الشعبية عملاً فنياً، لأنه يتوفر على جميع خصائص العمل الأدبي الناضج، كالفكرة، والشخص، والزمن، والحبكة الدرامية، يتم نقلها من جيل إلى جيل شفهاً وبذلك اكتسبت خاصية المرونة، نتيجة هذا التناقل، وهذا سبب تغير تفصيلاتها من جيل إلى آخر، كنتيجة طبيعية لهذا التناقل الشفوي المستمر.

والحكاية الشعبية، كما يعرفها الباحث (أحمد رشدي صالح)، هي: "فن القول التلقائي العريق، المتداول بالفعل، المتوارث جيلاً بعد جيل، المرتبط بالعادات والتقاليد. والحكاية هي العمود الفقري في التراث الشعبي، وهي التي نطلق عليها مجازاً الأدب الشعبي"¹. كما يعرفها (د. هادي نعمان الهيتي)، بقوله: "توع قصصي

ليس له مؤلف؛ لأنه حاصل ضرب عدد كبير من ألوان السرد القصصي الشفهي، الذي يضيف عليه التنوع والتلون من جيل لآخر².

والحكاية الشعبية في الجنوب لا تخرج عن دائرة هذا التعريف، فهي كذلك جنس أدبي من الفنون القولية العريقة المتداولة، توارثها أهل الجنوب تواترا من جيل سابق إلى آخر لاحق، ضمنوها أفكارهم ورواها، وحملوها عاداتهم وتقاليدهم ومعتقداتهم. والحكايا الشعبية تتشابه في ربوع الجزائر، في جوهها وتختلف في جزئياتها، ودقائقها، طبقا لتغير المنطقة وتباين أدواتها، وأزيائها، ولهجاتها، ونمط معيشتها.

3- خصائص الحكاية الشعبية في الجنوب:

3-1 مجهولية المؤلف:

فالحكاية الشعبية نص لا نعرف مؤلفه، ويتم إيصاله شفويا، لذلك سرعان ما يتم التركيز على الفعل السردى وأحداث الحكاية، بدلا من محاولة معرفة المؤلف؛ ومن ثم تأخذ الحكاية سمة التأليف الجماعي، فالمتلقي مع الراوي يعيد صياغة أحداث الحكاية، وسردها في نص جديد يختلف نسبيا عن النص الذي سمعه.

3-2 الحكاية نص شبه ثابت:

أي أن هناك قسما ثابتا، وآخر متحولا يتغير بحسب ظروف الراوي، أو العصر الذي يعيش فيه ، وغالبا ما يكون جوهر الحكاية وبناءها الدرامي هو الثابت فيها، وما يتحول فهو الأحداث والشخصيات الثانوية، ففي حكاية (بقرة اليتامى) مثلا يظل الثابت هو وفاة الأم، وزواج الأب بامرأة متسلطة تحاول بيع البقرة التي ورثها الولدان عن أمهما، والمتحول في الحكاية هو طريقة الإقناع، حيث يروى تارة أنها تنكرت في هيئة رجل صالح، يلتقي به الأب في السوق الأسبوعية ويبارك فكرة البيع، ويروى تارة أخرى أن الزوجة أجرت رجلا زار البيت كعابر سبيل، وشجع الأب على هذا الصنيع.

3-3 الاستناد إما على وقائع حدثت بالفعل، واكتسبت نوعاً من البطولة، وإما على خيالات مسرفة في العجائبية والغرابة، ويغيب فيها المنطق والمعقول ليعطي الخيال الخصب مساحةً من الحرية.

3-4 يكون قالب الحكاية شعرياً كحكاية (حيزية وسعيد) وحكايات المغازي والجهاد التي يخلدها الشعر الملحون، أو نثرياً، ويحافظ النوع الأول على الحكاية بعيداً عن التغيير نوعاً ما لخصوصية الوزن والإيقاع.

3-5- تعتبر الحكاية وعاء لغوياً يحمل اللهجات التي تعرضت للاندثار، وأسماء لأدوات استعملت قديماً في مختلف مناحي الحياة، ومُكْمِناً للتجارب والخبرات الحياتية، التي تصور كيفية تعامل الإنسان مع بيئته الصحراوية، وتعايشه مع ظروفها المناخية القاسية، ومرآة عاكسة لممارساته، وطقوسه في مناسباته الدينية والاجتماعية.

4-أنواع الحكاية الشعبية في الجنوب:

تنقسم الحكاية الشعبية، إلى سبعة أقسام، وفق تصنيف الباحثة (نبيلة إبراهيم)³، وهي:

4-1الحكاية الخرافية:

أبرزها تلك التي تتضمن الحكايات السحرية، وحكايات الجان؛ وتتميز بشطط في الغرابة والبعد عن المنطقية في الأحداث، فهي مساحة خصبة للخيال الحر، كحكاية (حديدوان والغول)، التي تروي حكاية فتى صغير، يواجه غولاً يمتلك قوى خارقة، ويتغلب عليه في النهاية بعامل الذكاء.

3-2 حكاية المعتقدات:

وهي معتقدات ترتبط بالقوى الخارقة، كالخالق عزَّ وجلَّ مثل حكاية (الفتنذ والضب والسلحفاة)، التي تصور القدرة الإلهية في مسخ ثلاثة رجال، وتحويلهم إلى هيئة حيوانات، بعد اعتداءهم على ناقة رجل صالح.

2-4 حكايات التجارب اليومية:

وهي الحكايات المستمدة من حياة الناس؛ وتتنوع بين المأساوية والعاطفية، كحكاية (حيزية وسعيد)

التي تروي حكاية سعيد الذي أحب ابنة عمه وحُرم منها.

3-4 الحكايات التاريخية:

وهي التي تحكي أحداثا تاريخية، وقعت في زمن أجدادنا، وتدور في غالبيتها على إغارة القبائل بعضها

على بعض، بسبب الماء ومناطق الرعي؛ كما تضم مغامرات الصيد.

4-4 قصص الحيوان:

وهو قصص رمزي، يقصد به الكشف عن عيوب الإنسان، بأسلوب حديث الحيوان أو الطير.

5-4 الحكايات الهزلية:

وتهدف إلى إشاعة روح النكتة والفكاهة، وتأخذ أحيانا طابع النقد. كحكايات جحا وحديدوان.

6-4 القصص الديني:

موضوعه القصص الثابتة في القرآن الكريم، وقصص الصحابة والتابعين والأولياء، كقصص الخلفاء:

أبي بكر وعمر وعلي رضي الله عنهم؛ وحكايات الأولياء الصالحين، كسيدي عبد القادر الجيلاني.

5 مفهوم التنمية المستدامة وأهدافها:

تعرفها الموسوعة الحرة ويكيبيديا بأنها: "عملية تطوير الأرض والمدن والمجتمعات، وكذلك الأعمال

التجارية، بشرط أن تلبي احتياجات الحاضر، بدون المساس بقدرة الأجيال القادمة على تلبية حاجاتها.

ويواجه العالم خطورة التدهور البيئي، الذي يجب التغلب عليه مع عدم التخلي عن حاجات التنمية الاقتصادية

وكذلك المساواة والعدل الاجتماعي.⁴

ظهر مصطلح التنمية المستدامة كثيرا في الأدب التنموي المعاصر، تحديدا في أواخر القرن الماضي

ليتبلور في الثلاثين سنة الأخيرة، وتعتبر الاستدامة نمطا تنمويا يمتاز بالعقلانية والرشد، ونمط التعامل

مع النشاطات الاقتصادية التي ترمي للنمو من جهة، وإجراءات المحافظة على البيئة والموارد الطبيعية من جهة أخرى، وقد أصبح العالم اليوم على قناعة بأن التنمية المستدامة هي السبيل الوحيد لضمان الحصول على مقومات الحياة في الحاضر والمستقبل، وطريق التقدم للمجتمعات، وتأمين حاجات الأفراد⁵.

وبذلك تكون التنمية المستدامة نابعة من مفهوم التنمية بشكل أساسي، إلا أنها تركز على تنمية

الإنسان بالدرجة الأولى، من أجل تحقيق نوعية حياة أفضل.

6 - أهم أهداف التنمية المستدامة وكيفية استثمار الحكاية الشعبية في تحقيقها:

تم إدراج الثقافة لأول مرة في جدول الأعمال الدولي للتنمية المستدامة، وذلك ضمن أهداف التنمية التي اعتمدها الأمم المتحدة في سبتمبر 2015. ولقد ابتهجت اليونسكو بهذه الخطوة وحيّت هذا الاعتراف غير المسبوق"، ومنذ ذلك التاريخ لم تدخر جهداً في إحياء الموروث الثقافي واستثماره في هذا المخطط التنموي.

والحكاية الشعبية لون من ألوان الموروث الثقافي، إن لم تكن أكثره انتشاراً، لذلك أضحت من الضروري

تسليط الضوء عليها، واستثمارها في هذا المشروع الحضاري.

وإذا كانت تنمية الإنسان هي أولوية التنمية المستدامة، فإن الحكاية يمكنها المساهمة في ذلك، لأنها

وعاء ضم تراكم خبرات شعوب وأجيال متعاقبة، من الحكمة استثمارها.

وأول من يمكننا إفادته من هذا الموروث هو الطفل، إذ يمكن استثمار الحكاية الشعبية في أدب

الطفولة، وذلك بعد تشذيبها وتهذيبها، فليس كل حكاية شعبية صالحة لأن تروى للأطفال، مع تطوير قالب

الذي تقدم فيه للطفل، كتحويلها إلى أقراص مضغوطة، أو أفلام كرتون ثلاثية الأبعاد، لربط الطفل بماضيه

وتراثه، الذي يعد أهم مقومات شخصيته، وجعله مواكباً للتقدم التكنولوجي الحاصل في عصره.

ويمثل دخل السياحة الثقافية مقدار 40% من مداخيل السياحة العالمية، لذلك يمكن استثمار الحكاية

الشعبية في تجسيدها في منتج مادي، له خصوصيته الثقافية ورمزيته الزمانية والمكانية، كتحويل مضمون

الحكاية إلى لوحة نسيجية في الزرابي، أو نحت على كَرَب النخيل (الكرناف)، وحتى في صناعة السروج والأسلحة والحلي، أو رسم على الرمل لمساعدة الأسر على تخطي عتبة الفقر، وتحقيق دخل ثابت من جهة، والخروج بهذا الإرث الدفين من عالم النسيان إلى الوجود المحلي والعالمي من جهة أخرى.

ولقد اعتبرت الحكاية الشعبية مادة خصبة، ومصدر إلهام لا يستهان به لشعراء الشعر الملحون، فكم من حكاية خلقتها القصائد الشعبية، كحكاية حيزية العاطفية، وحكاية الملكة مباركة بنت الخس البطولية، بقصر المنيع؛ تلك التي ارتبطت حكايتها بهذا القصر وما حوله، وأغرت من سمعها بزيارة المعلم الأثري، الذي كان مسرحاً لأحداثها. فساهمت بشكل كبير في تحويل هذا القصر إلى قبلة سياحية تدر مداخيل على المنطقة، وما جاورها. بل لقد ساهمت الحكاية الشعبية في إثراء المسرح بنصوصها، وشخصياتها البطولية، التي تجمع بين تعليم المتلقي، وإمتاعه.

وبما أن الجنوب الجزائري موطن يتشارك سكانه مزيج من القبائل، التي تتحدث لهجات مختلفة كالحشانية والريغية والميزابية، فإن ذلك أسهم -وبشكل كبير- في تميز تراث المنطقة، وخصوصيته، وتنوعه، وقدرته على تنشيط حركة الترجمة، والتعريب لهذا الموروث.

وهذا الجانب يفيد في استثمار هذا التراث عمليا، وذلك بتوظيف بعض التجارب في صناعة معاجم خاصة بلهجات المنطقة، مما يدفع بحركة التأليف والطباعة نحو التقدم، ويمد المخابر المهمة بهذا الشأن بمادة عمل ثرية. .

7 خاتمة:

كانت الحكاية الشعبية في الجنوب -وما تزال- وعاء لتجارب وخبرات، من الضروري عدم إهمالها، ومن الواجب استغلالها استغلالا كاملا لتنمية الإنسان، وربط حاضره بماضيه، ليُبْتعث فيه حس الانتماء إلى المكان. فيتشَبَّث به أكثر، ويفكر بصورة جادة في المحافظة عليه واستثماره، دون إلحاق الضرر به، وما ذلك إلا تحقيق للأساس الأول في التنمية المستدامة ألا وهو تنمية مواهب الفرد، والتي بها تتحقق تنمية

المجموعات الإنسانية، والأوطان على أحسن وجه، وعليه فالموروث الثقافي المرتبط بماضي الشعوب، يعتبر أحد الأبعاد الرئيسية المؤسسة للهوية الثقافية، فهو في أشكاله المتنوعة أحد ركائز التنمية المستدامة في جانبها الاقتصادي، والاجتماعي والثقافي، وهو ما أكدته منظمة "اليونسكو" في الكثير من اتفاقاتها وقراراتها، إذ ألحت على الدور المحوري الذي يقوم به التراث الثقافي في التنمية، بوضع سياسات عمومية تدمج الموروث الثقافي في العملية التنموية. وفي السياق نفسه، أولت مختلف الدول عناية كبيرة لترويج تراثها الثقافي وتطويره، والأكثر من هذا إدخاله في بوتقة الاقتصاد، خاصة ما يتعلق بالسياحة الثقافية، والاقتصاد الإبداعي.

هوامش:

-
- ¹ أحمد رشدي صالح: الفنون الشعبية، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة، 1961، ص. 96.
- ² هادي نعمان الهيتي: ثقافة الأطفال، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ع. 123، مارس، 1988، ص. 175.
- ³ نبيلة إبراهيم: سلسلة عالم المعرفة، مرجع سابق، ع. 123، ص. 186.
- ⁴ <https://ar.wikipedia.org/wiki> تنمية مستدامة.
- ⁵ ريمون حداد: نظرية التنمية المستدامة، برنامج دعم الأبحاث في الجامعة اللبنانية، بيروت، 2006، ص. 4.